

قصة هيام
أحمد خالد توفيق
Rewayat2.com

قصة هيام - الحلقة الاولى



سوف أكتب عن هيام.. هيام التي تأبى أن تتزوج لسبب يمكنني فهمه..

زجاجة المياه الغازية تظل باردة جذابة إلى أن تُشرب.. بعدها تصير مجرد زجاجة خاوية مهملة يركلها الأطفال ويغطيها الغبار، وتحملها (سعدية) الخادمة إلى (عبده) البقال في إهمال فيتشاجر معها مؤكدًا أنها أخذت خمس زجاجات لا زجاجة واحدة..

من المهين أن تعتبر نفسها زجاجة مياه غازية.. هذا يوحي بالالتهام وبأنها مجرد سلعة، لهذا كانت تختار تشبيهًا أقل صدمة: ديوان شعر لم يُقرأ بعد.. زهرة لم تُقطف بعد..

الزواج يفقد المرأة كل أسرارها وكل غموضها، وهو ذات ما فطن له رجال الساموراي في الماضي عندما اعتبروا أن الزواج يفقد الفارس قدراته. هيام تؤمن بهذا، ويسرها جدًا أن تسمع العروض تنهال عليها.. لو تزوجت فلا عروض.. أما اليوم فسوف يقترب منها زميل العمل هذا أو ذاك مرتبكًا.. يعطي تلميحات خفيضة باهتة.. يتكلم عن الكفاح المشترك والحاجة لأن يمضي المرء حياته مع شخص يفهمه، ثم يتجرأ ويلقي بالعرض:

- "هل لي أن أقابل بابا؟"

سوف تنظر له كأنه أكبر غبي رأته في حياتها، وسوف تنظر للسقف بما معناه (يا ربي).. ثم تخبره أن أباها توفي وأن عليه مقابلة خالها وأمها. يسرها جدًا أن ترى الأمل في عينيه.. اللورد البريطاني المتأنق يعطي الثعلب فرصة للفرار وأملاً، ثم يشعل سيجارة وينظر لرفاقه وكلابه ويصيح :

واصلوا المطاردة!!

هذا شاب مجيد، ربّاه أهله جيدًا وحرص على أن ينال حظًا من العلم والخلق والدين وربما الوسامة... شاب ناجح بكل المقاييس.. وهي سترفضه!! ستهز ثقته بنفسه، وبالتأكيد لن يشعر بالراحة أبدًا بعد اليوم وهو يرمق صورته في المرآة..

ربما أنا أسخف أو أفقر أو أقبح أو أغبى مما ظننت بنفسي؟؟ أمه سوف تقول له :إنه طن من الذهب يمشي على قدمين؛ لكنه لن يصدق.. لابد لأمي أن تقول هذا...

هذه الانفعالات تعطي (هيام) لذة لا يمكن وصفها.. لذة تفوق الزواج والأسرة بكثير..



سوف يأتي الشاب ليلاً مع أبيه وأخيه وأمه، ولسوف يحاول الجميع أن يكونوا في غاية الظرف.. أما هي فلسوف تراقب الفتى تبحث عن خطأ ما، شاعرة بأنها قاض على وشك إصدار حكم الإعدام.. الفتى يهز ركبته كثيرًا.. إنه غير واثق من نفسه إذن.. يحك أنفه أي أنه كذوب.. مجلة (حواء) قالت: إن الدم يحتشد في أنف الكذابين فيشعرون بحكاك قوي.. يا لك من وغد كذوب ضعيف الشخصية إذن!..

في النهاية تخبر خالها في حزن م

صطنع أنه: مفيش نصيب..

تحاول أمها إقناعها.. الأمهات لا يفهمن هذه الأشياء، ربما لأنهن أكثر حكمة.. سوف تمر هذه (الزهوة) -بلغة الأمهات- وتقل الفرص.. لابد من أن تكون الفتاة ذكية تعرف أفضل الفرص وتغتنمها.. لكن (هيام) لا تريد الزواج فعلاً.. سوف تعرف الوقت المناسب والعريس المناسب يومًا ما؛ لكن ليس الآن.. مستحيل أن تتخلى عن لعبة الصيد الممتعة هذه..

يصعب معرفة اللحظة التي قررت فيها (هيام) أن اللحظة قد حانت..
يبدو أن تعب المعادن يحدث للبشر أحيانًا.. وقد جاء يوم قررت فيه أن تلين وتنهار. لعل الأمر يتعلق بالتعب فعلاً أو يتعلق بشخص (رامي)..

يقول نقاد القصة: إن رأي المؤلف لا قيمة له.. المهم ما يراه بطل القصة وليس المؤلف. هذا صحيح إلى حد ما؛ لكني مضطر لأن أخبرك برأيي في رامي وإلا متُّ كمدًا..

بصراحة أنا لا أرتاح له كثيرًا.. منمق أكثر من اللازم.. أنيق إلى حد الأنوثة.. كل حركاته تمثيلية كأنه جربها مرارًا أمام المرآة قبل ذلك. كيف يمكن أن تقود سيارتك بيد واحدة وكف مفتوح وأنت مضطجع في مقعدك بزاوية 150 درجة؟.. يد واحدة على المقود كأنك تمسحه من الغبار ولا تقود به، مع لفافة تبغ سوداء غريبة أنيقة في اليد اليسرى تحملها بأناقة كممثلات المسرح الغربيات.. ثم تلك الحركة التي يضم فيها يديه على صدره كأنه يتحدث من القلب...

بصراحة هو رجل يثير اشمئزازي؛ لكن من الواضح أنه راق لصديقاتها ومن المؤكد أنه راق لها جدًا..

وكانت (هيام) من الطراز الذي يمكن أن يتزوج شابًا -برغم كل مبادئها تلك- لمجرد أن تغيظ صاحباتها... صديقتها (ليلى) باهتة الشخصية من الطراز الذي خلق ليُقاد، وكانت (هيام) تحبها بجنون لأنها تلعب معها لعبة المعلمة والتلميذة.. تتحكم فيها كدمية مسالمة ضعيفة أقل منها في كل شيء، وكانت تتشاجر لها مع الجميع.. مع سائق التاكسي.. مع الشاب الوقح الذي دفعها في الزحام.. مع البائع الذي يغالي في السعر.. إلخ.. كأنها رجل يدافع عن امرأته...

(ليلى) كانت معها في المكتب عندما دخل (رامي) يسأل عن تكلفة شحن مجموعة طرود لألمانيا..نظرت له (ليلى) طويلاً، ثم قالت همسًا وهي تتنهد:

-" لا خواتم"

-" عم تتكلمين؟"

-" غير متزوج"..

نظرت هيام إلى يده، وللحظة بدت لها كبحر يعج بالفرص.....

قصة هيام - الحلقة الثانية



قالت (ليلى) بصوت مبحوح:

- "إلى أين تذهب تلك الفرص الدسمة؟.. من يظفر بها يا ربي؟"

في سرها قالت هيام:

- "تذهب لي يا بلهاء.. أنا التي تظفر بها"!!

على كل حال كانت قد قررت أنه يكفيها شيء واحد.. أن يتقدم لها هذا الفتى الساحر وتعطيه موعدًا، ثم تأتي يوم سبت لتعلن في المكتب:

- "هذا الفتى الوسيم الثري.. لقد تقدم لي الخميس الماضي لكني رفضته.. لا أحب الرجال الذين يستعملون المنديل كثيرًا.."..

وسوف تجن الأخريات غيظًا.

على كل حال كانت توقعاتها دقيقة جدًا.. لقد بدأ (رامي) يتردد على المكتب كثيرًا.. أكثر مما يتحمله الموقف في الواقع؛ فمن الصعب أن يتحمس أحد لشحن الطرود بهذا الشكل. ثم بدأ يتعمد الكلام معها، والكلام كان كله عن الطرود –وهو موضوع شائق كما ترى– ثم بدأ

يتطور.. إنه أهلاوي ومباراة الأهلي الأخيرة حديث الساعة.. ماذا؟.. هل تحبين كاظم الساهر مثلي؟.. غريب هذا..

الآن يمكننا أن ننسى كل ما عرفناه عن هيام.. لقد صارت تسأل نفسها في كل ليلة:

- "متى يتقدم هذا المعتوه؟.. هل يحسبني سأنتظر للأبد؟"

لكنها لم تكن متأكدة من رد فعلها لو تقدم.. هل ترفضه؟.. الآن لم تعد واثقة..

عرفت أنه وريث ثري جدًا، وأنه رجل أعمال، وأنه وحيد..

رأت سيارته ورأت كيف يدخن..

لم يكن يهز رجله أو يحك أنفه كثيرًا...

من الواضح أنه عريس ممتاز..

قال لي (عباس) وهو يراجع ما كتبت:

- "لا بأس.. الحلقة الأولى جيدة.. أشعر أن شيئًا سيحدث"..

قلت له في غيظ:

- "طبعًا سيحدث شيء، لو لم يحدث فلماذا أكتب أصلاً؟"

- "لكن حاول ألا تفسدها"..

- "سأحاول"...

(عباس) لا يكف عن إهداء النصائح القيمة لي.. لولاه لتحولت إلى غبار كونيّ منذ أعوام.

عندما غادر (رامي) الدار، سألتها أمها في لهفة:

- "هيه؟.. ما رأيك؟"

لاذت بالصمت ولم تقل شيئًا.. وأدهشها هذا الضعف من نفسها.. هذه الرقة الأنثوية تعتبرها هي شيئًا مخجلاً، ثم إنها لم تمرح ولم تتسل عليه بما يكفي..

قال خالها وهو يحشو فمه بطعام العشاء:

- "سمعته طيبة في عالم الأعمال؛ لكن لا أحد يعرف شيئًا عن أهله.. لا شيء على الإطلاق.. جاء من الخارج ليقيم في مصر ويحكي قصة طويلة عن أهله الذين فروا من التأميم وبقوا في الخارج"..

قالت أمها رأيها الدائم في أن العريس الممتاز هو العريس الذي يكون (حالق راسُه وعادم ناسُه)..

أي أنه بلا أهل، أما عن سبب جاذبية حلاقة الرأس؛ فليس لأن الأم من المعجبين بموضة **Skin head**؛ ولكن لأنه لابد من قافية تتناسب مع (ناسُه).

هكذا تم الزواج..

وهكذا سقط الطائر المراوغ الحرون في شباك الصياد الوسيم بعد سنوات من التحليق..

أما التساؤل عن الأكثر حظًا (رامي) أم (هيام)؛ فأمر يتوقف على نوعك: لو كنت من العرسان الحالمين الذين عبثتْ بهم؛ فأنت تجد (رامي) محظوظًا فعلاً، أما لو كنت مثل (ليلى) لحسدت (هيام)

على كل حال لاحظت (هيام) أشياء غريبة لم ترحها في (رامي)؛ لكنها لم تعلق عليها..

لماذا ينام على ظهره دائمًا وعيناه شبه مفتوحتين؟..

لماذا تصحو في منتصف الليل فلا تجده جوارها؟...

أين يذهب؟..



يقول إنه يحب الهواء الطلق.. لكن أين يشمه بالضبط؟

في ذلك الفندق الذي أقاما فيه في شهر العسل، كان من المستحيل أن تخرج ليلاً، ولا يوجد شاطئ تمشي عليه بالمعنى الحرفي للكلمة...

عندما عادا كانا يسكنان في منطقة منعزلة في أحد التجمعات السكانية.. هناك أصوات غريبة ليلاً..

ذئاب وربما سلعوّة.. ليس أفضل مكان يمشي فيه المرء وحده ليلاً...

لكنها لم تستطع قط أن تتصيد اللحظة التي يخرج فيها ليلاً.. دائمًا تكون نائمة...

قال لي (عباس) في ضيق:

- "التيمة المعروفة.. زوجي غريب الأطوار.. أنا أشك في أنه ليس كما يبدو.. ألا تنوي أن تغير هذه الأحداث النمطية؟"

قلت له وقد بدأ الدم يتصاعد لرأسي:

- "يا أخي لا تكن مزعجًا.. اصبر.. اصبر"..

قصة هيام - الحلقة الثالثة



ليلة غريبة هي تلك التي قضتها مع أقاربه في الفيوم ...

لم يكن قد حكى لها عنهم قط، وهي تعرف يقينًا أنه بلا أقارب.. لكن الصورة تتغير، وهو يحدثها عن أقارب قدامى له.. مجموعة غريبة الأطوار من البشر، وأنا أعني ما أقول.. عندما لا تتكلم طانط (علياء) أبدًا وتظل ترمقك في ثبات، وطانط)ميرا) التي تضع الإيشارب ليحجب معظم وجهها لأنها لا تتحمل الشمس، فلا ترين سوى عينيها.. ثم ذلك الرجل الغريب المدعو (عزمي) الذي لا يكف عن شرب أشياء من زجاجات صغيرة، ويؤكد أنها دواء.....

عندما وضعت (نانسي) -قريبته- يدها على يد (هيام) شعرت بأنها باردة كالثلج.. قاسية .. صلبة.. يمكنها أن تنتزع قلب أسد من ضلوعه بلا جهد يذكر...

الجو لم يكن ودودًا برغم أن (رامي) بالغ كثيرًا جدًا في التظرف والتمثيل..

كان يطوح رأسه للخلف ضاحكًا، ويثب في الهواء متظاهرًا بالحيوية...

في نهاية اليوم قالت طانط (علياء) بصوتها الخشن الأنفي الذي يذكرك برجل عجوز يرتجف:

-"شد حيلك يا (رامي).. نحن نريد الذرية.. أنت تعرف هذا جيدًا"..

لم تكن دعوة طيبة.. كان هذا أمرًا صارمًا لا راد له، وتقسم (هيام) على أن (رامي) وقف في مكانه بشيء من الرهبة، واحمرت أذناه قليلاً...

-" طبعًا يا طانط"...

كانت مندهشة من تأثير أقاربه عليه، ولماذا لم يظهروا في الصورة إلا بعد الزواج.

عندما جاء المساء أعد لها (رامي) الطعام.. جلب الكثير من عصير البرتقال وجلس معها على ضوء الشموع.. كانت تفكر: أن هذا ليس عدلاً.. الفتاة تقبل المخاطرة وتتزوج رجلاً لا تعرف عنه إلا أقل القليل.. ثم يكون عليها أن تواجه هذا كله وحدها، وأن تدفع ثمن قرارها هذا. ماذا تعرف عن (رامي)؟.. لا شيء سوى اهتمامه بالطرود المرسلة لألمانيا، وأنه وسيم منمق...

بالتأكيد كانت في وضع أفضل عندما كانت عزباء تملي شروطها، كقائد يستعرض صفوف الجنود من الخطاب...

فجأة بدأ النعاس يلعب بعينيها.. تثاءبت ولم تعد تشعر إلا بـ (رامي) يقتادها للفراش وهي لا تكف عن التثاؤب.. الأرض عالية جدًا ولينة.. من قرر فرش الشقة بالمراتب الهوائية؟ لابد أنه مجنـ.................



هنا نهض (عباس) محنقًا وألقى بالورق على الأريكة وقال:

ـ" ها نحن أولاء قد انتقلنا لقصة (طفل روزماري) مع أننا بدأنا بقصتك الخاصة.. الزوج يعمل مع عبدة الشيطان بغرض المجيء للكون بابن للشيطان من امرأة بشرية ..زوجها متواطئ يا أستاذ.. متواطئ..!.. هذا واضح وكذلك هو يدس لها المنوم في عصير البرتقال.. بل من الممكن أن تسوء الأمور أكثر ويكون زوجها هو الشيطان نفسه"!!

نهضت وبدأت أجمع أوراقي أمام عينيه المندهشتين، فسألني في غباء عما هنالك.. قلت له:

ـ" أرى أن تقوم أنت بالتأليف.. فلديك موهبة ممتازة في هذا الصدد"..

جذبني من ذراعي وقال ملحًا:

ـ "أنت لا تقبل النقد"..

ـ "وأنت لا تقبل الفن"

ـ "فقط عندما يكون جيدًا"..

ـ "أنا لا أؤمن بموضوع تذوق البيضة لمعرفة إن كانت فاسدة أم لا.. لابد من التهامها كاملة أولاً.. إن تسممت كانت فاسدة وإلا فهي جيدة.. فقط اخرس قليلاً ودعني أكمل."

هكذا جلس مغتاظًا وبحث عن الصفحة التي كان يطالعها...

هيام الآن حامل

إنها مندهشة من كل هذه المهانة التي تلاقيها أنوثتها؛ فهي عاجزة عن اعتبار الأنوثة مجدًا .. ليس لها سوى بطن منتفخة وقدمان متورمتان وأنفاس قصيرة متلاحقة وحجاب حاجز يوشك

على أن يخرج من فمها.. الركلات... الركلات من الداخل لا من الخارج..

الطبيب الذي فحص بطنها بالسونار اتسعت عيناه رعبًا..

-"هل هناك مشكلة ما؟"

تجمعت قطرات العرق على جبينه، برغم تكييف الغرفة القوي، وقال:

-"أشياء غريبة في الصورة.. أعتقد أن هذا ناجم عن التزييغ.. أجسام في السائل الأمنيوسي تعطي صورًا غريبة.. ربما الغازات.. ربما.... فقط يجب أن نعيد هذا الفحص بعد شهر."

لكن (رامي) جن غيظًا عندما عرف أنها خضعت للفحص بالسونار، وقال لها:

-"أشياء كهذه لا تتم دون علمي.. ربما عرّض السونار الجنين للخطر"

-"لكن السونار لا يؤذي.. إنه آمن تمامًا"

-"هكذا يقول الأطباء اليوم، وعما قريب سوف يعرفون أنه خطر داهم.. في طفولتي كانوا يفحصون الأجنة بالأشعة السينية ويحسبون لا خطر هنالك"

هكذا اضطرت لأن تصمت وتقبل ألا يفحصها طبيب طيلة فترة الحمل....

والجواب عن مخاوفها كان قريبًا جدًا..



جدًا...

قصة هيام - الحلقة الرابعة



ولد أحمد في ليلة من شهر ديسمبر..

ليلة باردة انهمر المطر فيها مدرارًا، وكان طفلاً جميلاً بلا تشوهات ...

لكنها لم تكن سعيدة به. ثمة شيء خطأ...

رامي (كذلك لم يكن سعيدًا به برغم أنه أطلق عليه هذا الاسم ليكون) أحمد رامي (على اسم الشاعر الكبير.

كان رامي يتصرف بنوع من اللهفة والقلق كأنه كان ينتظر لحظة بعينها وقد جاءت...

لاحظت هيام أن ابنها صموت..

لا يبكي مثل الصبية ولا يعوي..

بل إنه يكون أكثر راحة في الظلام...

هذا أثار رعبها بشكل خاص...

لم يكن يلعب مع رفاقه..

بالواقع لم يكن له رفاق أصلاً..

قال (عباس) ضاحكًا:

- " لقد انتهت عقدة روز ماري وبدأت عقدة (النذير).. داميان.. الطفل الشيطاني ..ربما مسحة من (لعنة المذءوب) كذلك؛ حيث يلمس الرضيع ماء العماد فيغلي، لأنه يحمل بذور داء الاستذئاب.. فقط أنت جعلت الجو عربيًا"..

قلت له في وقار وهدوء:

- "لن يحدث هذا.. صدقني"...

هنا اتسعت عيناه رعبًا..

وطوى الورق كأنه عصا غليظة ونهض صائحا:

- "لحظة ..!.الرعب الموجه لوجهة خطأ!... هذا هو!... أنت حاولت أن تجعلني أشك في (رامي (والطفل منذ بداية القصة.. هل تعرف ما أفكر فيه؟... هناك كائن شيطاني واحد هو (هيام)!.. سوف ندرك هذا في النهاية وينقلب كل شيء"!

قلت في برود وأنا أضع ساقًا على ساق:

- "لو فعلت هذا لقلت إنني أكرر نفسي"..

- "إذن ما الذي سيحدث؟... ماذا؟"

- "أكمل القصة"!!



الآن (أحمد) الصغير في العاشرة..

تجلس (هيام) في الشرفة ترمقه وهو يلعب في حديقة الفيلا.

للمرة الأولى تنظر لنفسها من الخارج وتدرك أنها سعيدة..

لا تعرف الظروف السحرية التي جعلتها تغير خطة حياتها وتتزوج بدلاً من التسلية على الخطّاب..

لا تعرف كيف وثقت بشخص لا تعرف عنه شيئًا؛ لكنها اليوم تعرف عنه الكثير..

ظلت طيلة هذه الفترة تتوقع الشر، لكن لم يحدث شيء..

تنتظر في كل يوم مصيبته القادمة، لكن لا مصائب..

اليوم تدرك أنها أضاعت عشر سنوات ثمينة من حياتها بانتظار انهيار كل شيء، وانكشاف السر الرهيب الذي يخفيه زوجها..

لكن لا سر هناك..

الحياة لم تكن بهذا السوء ..

سوف يكبر الصغير وتشيخ هي، وسوف تذهب معه لرؤية فتاة أخرى تتسلى برفض الخُطّاب ..

وستقول له معزية وهما ينزلان الدرج:

-"انسها.. صدقني.. الموضوع لا يستحق"..

لكنه لن ينسى بسهولة.. هكذا دورة الحياة الأبدية...

وابتسمت ورشفت رشفة أخرى من عصير البرتقال الذي أعده لها زوجها..

هتف (عباس) في بلاهة:

-"ماذا ؟... تمّ؟... لم يحدث شيء"!!

قلت وأنا أضع الأوراق في ملف:

" -ألم تفهم؟... بلى، لم يحدث شيء ..هذه قصة عن فتاة اسمها (هيام) تزوجت وأنجبت طفلاً وعاشت حياة سعيدة... هذا كل شيء."..

احمر وجهه كالطماطم وقال:

- "رامي ليس شيطانًا ولا عابد شيطان؟.. ابنها ليس ابن الشيطان؟.. البرتقال لم يحو منومًا؟..

الجولات الليلية لا سر وراءها؟.. الأسرة ليست أسرة شيطانية؟."...

قلت في ثقة:

- "لا تنكر أنني خيّبت كل توقعاتك ولم يحدث شيء مما خمنته.. هذا هو سر قوة هذه القصة.. أول مؤلف يكتب قصة لا يحدث فيها شيء على الإطلاق، وبالطبع لن يزعم أحد أنه قرأ القصة من قبل أو خمن ما سيحدث فيها.. وإنني لأشكرك على الشيك الدسم الذي كتبته كأجر لي."

راح يفكر بعض الوقت، ثم نهض ليقتادني إلى باب الخروج...

هناك صافحني وهو يبتلع ريقه، وقال في ارتباك:

-" سامحني ..إن الصدمة كانت قوية.. والنهاية غير متوقعة فعلاً.. آخر نهاية يمكن لإنسان أن يخمنها مهما حاول.. أعتقد أنني سأنشرها.. إن القصص التي لا يحدث فيها شيء على الإطلاق ليست بدعة.. يسمونها (اللا رواية Antiroman (وهناك نماذج قوية لدى فوكنر وفورستر؛ لكن البداية كانت توحي بشيء مثير كما تعلم وحسبت أننا.. (احم).. إنني مرتبك ولا أعرف ما أقول"....

وفتح فمه ليعبر أو يقول أكثر؛ لكنني ابتسمت لأريحه..

واستدرت منصرفًا وهو ما زال ينظر لي في بلاهة باحثًا عن شيء يقال...

تمت بحمد الله